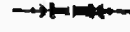


ضرورة الإفصاح عن الرغائب

للأستاذ حسين الظريفي



كان مما تناولناه في مقال لنا سابق عن الرغائب ، تلك القوة الديناميكية التي تمتع بها الرغبة ، وتدفع إلى الظهور ؛ وما تلك القوة إلا وليدة ذلك الرباط الذي ترتبط به بالفرزة . والفرزة لا ريب تراث ذلك الماضي الطويل الذي يظل يتقهقر ويتقهقر حتى يتصل بأول الخليفة ؛ فليس مما يقع في الإمكان أو يتصور في الأذهان ، أن تبطل هذه الفرائز ، أو ينعدم ما تتمخض عنه من الرغائب ، ونحن لم نزل في ظروف وبين وقائع إن لم تكن مثل تلك التي احتضنت الإنسان الأول فإنها لها مقاربة . وما كان لبشر أن يحيا مجرداً عن الرغائب ، وهي التي تشمره بوجوده وتدفع به في طريق الأمل والعمل

والحقيقة التي بدور عليها مركز ثقل الموضوع في هذا المقال ، هي أن الرغبة لا تخلو إما أن تكون تطوراً لفرزة ، أو عوضاً عنها . فنحن كنا نعيش بالفرزة العمياء ، حتى إذا أبعدت الحياة في مراحل التقدم ، أخذت بعض الفرائز تستحيل إلى رغائب بحيث لا يبقى لها من أثر فيها استحال إلى ، إلا ذلك المعنى الذي يدفع أو يمنع . ونحن إنما نطور الفرزة إلى رغبة ، أو نستبدل هذه بتلك ، بذلك العامل الفكري الذي تمتع به الإنسان منذ عهده الأول لحدا به إلى التقليد تارة وإلى التجربة مرة أخرى ، حتى انتهى به المطاف في مراحل الكثرة إلى أن أصبح مجموعة رغائب بقدر ما كان مجموعة غرائز

وأخذت الرغبة عن أمها الفرزة ما لها من قوة وفتوة ، وأصبحت في نفس الإنسان مظهر قلق من هذا ، وعامل إقدام أو إحجام من ذاك ، ولكنها على كل حال تأتي إلا أن تُدرك ما لا يُترك ، وإلا بقيت في النفس شغلاً شاغلاً أو هلة دفينه .

فنحن لا يمكن أن نشمر بالسعادة ولو كانت محدودة في النوع وفي الزمن ، ما دامت إحدى رغائنا القوية لا تصل إلى ما تريد الوصول إليه . تلك هي العلة في شكوى أكثرنا مما يقع لهم في الحياة ، حتى تكاد تضيق بهم على رغم ما لها من سعة وما فيها من متعة . فتتأرجح هذه الشعور إنما يرجع إلى مصدره في أعماق النفس ولا شأن له مع الخارج

غير أن قضاء هذه الرغبة وحده لا يكفي في إيجاد الشعور بالسعادة ، وإنما يجب أن يرى هذا القضاء على شكله النافع لمن قامت هي عنده ولنيره من الناس . فالرغبة في ذاتها لا تمثل خيراً ولا شراً ، وإنما تضر أو تنفع بالقياس إلى طريق إشباعها من جوع وإروائها من ظمأ ؛ لذلك أمكن أن نتخذ من الرغبة مهما كان نوعها أو لونها ، عامل نصر في معركة الحياة

إن في طيات النفس ضروباً من الفرائز إحداها غريزة المقاتلة ، غير أن هذه الغريزة لم تعتمد تفصح عن نفسها في أوساط الحضارة وفي أغلب الأحيان ، كما كان يفصح عنها الإنسان الأول في بيئته المتأخرة وإدراكه المحدود ؛ فبعد أن كان الأوائل من أهل القرون المزعجة في القدم لا يكتفون في إشباع هذه الغريزة بنير القتل والتمثيل ، أصبح لنا من وازع الضمير ومن قوة القانون ما يحول دون الإفصاح عن هذه الغريزة بلبتها الأولى ، فقد نشور في داخلنا الرغبة في القضاء على الخصم ، إلا أن ما يعايقه الضمير ، أو رهبة تبعثها العقوبة ، أو هذه وذاك مجتمعين ، يحولان دون تلبية تلك الرغبة الأولية بذلك اللسان القديم ، فنختار طريقاً آخر في تأمين حاجة النفس إلى إيذاء العدو ، فننتقم عيوبه ونملأها للعلأ أو نزيه أنأله مهملون

إن من طبيعة الغريزة أنها لا تظهر إلا بما هي فيه وعليه من غير تلوين أو مراوغة . ذلك لأنها خلو من التبصر والتدبر ، فلا تعرف معنى لاختيار الأصلح في المهدف وطريقة الوصول

وقد ظهر أن هذه الفريزة قد تستنفد طاقتها وتستفرغ
وسمها في صور شتى هي خلاف اجتماع الذكر بالأنثى ، كالانصراف
إلى الرياضة ، والاشتغال بالفنون الجميلة ؛ فإذا نحن عرفنا مصدر
الشذوذ في الخلق وأرجعناه إلى ظمأ هذه الفريزة ، كان في مكنتنا
تسوية هذا الشذوذ بإزالة ذلك الظمأ . . . تلك هي الطريقة
المصححة في تقويم ما اعوج وبناء ما انهدم من جوانب أخلاقنا
وانجهاتنا وأهدافنا في الحياة . والأمرا أهون مما يُظن متى
كشف عن دخيلة النفس ، واستجيت دعوة تلك الرغبة
بما يرفع عنها الضغط ويعمل بها من القاع

محيي الظلمة

إليه . ثم هي لا تقيم وزناً لقوة الظروف وماهية الوقائع ، وإنما
تتجه إلى الغاية في ذات الطريقة . لا تتلفت ولا تتكلف . ولكن
يظهر حياة التمدن وتقيّد هذه الحياة بآداب الوسط الجديد
وبأحكامه الآمرة أو الزاجرة ، وجد المرء نفسه بحاجة إلى تعديل
ما في بعض غرائزه الفطرية وإلى الاستماسة عن بعضها الآخر
بما دعواته بالرغائب . وكانت هذه التطورات والتنيرات المتلاحقة
على الفريزة أثراً لتلك المراحل الطويلة التي قطعها الإنسان
في سبيل التقدم ، وصدى لذلك الصوت العميق التبعث من
أعماق الضمير

يتضح من كل ما تقرر أن الخلق ليس إلا مظهرًا لرغبة
تقيم في العقل ، ما أعلن منه وما أبطن ، فإذا نحن أردنا استبدال
خلق بآخر أو إجراء تعديل فيه ، فلا مندوحة لنا عن التعرف
بتلك الرغبة التي صدر عنها ذلك الخلق ، ومن ثم إشباعها بصورة
حميدة تقضى على كل شذوذ في السلوك . أما إذا نُظر إلى الخلق
وحده ، وأُهملت الرغبة التي تكمن وراءه ، فإن كل مسمى
في إصلاحه يذهب سدى

وأفضل ما يضرب به المثل في هذا المجال ، ذلك الباعث
الأول والدافع الأسيل في النفس وأعنى به (الفريزة الجنسية)
فإن إشباعها وإرواءها مما لا مفر منه ولا محيص عنه . فإذا
اصطدمت هذه الفريزة بما حال دون الإفصاح عنها ، واضطرها
إلى التوارى من مجرى الشعور إلى ما وراءه — أبت وهي في قاع
النفس إلا أن تضطرب وتلهب وترسل في وسطها المظلم تيارات
خفية من الأوامر والنواهي ، تظهر على المصاب عند تليتها
بمظاهر الشذوذ

فنحن نبدو عاجزين عن معالجة الليل إذا فصلنا الشذوذ
عن الرغبة الفريزية التي تحيط به وتنذيه ؛ فالإصلاح يجب
ألا يتناول الخلق ذاته ، وإنما يجب أن يتجاوزها إلى ما وراءه
من بواعث خفية هي ولاية الأمر في كل شذوذ من المجموع ،
وفي كل ظاهرة تمر ، وأخرى قد تصل إلى مرتبة الجنون ،
أو تؤدي إلى ارتكاب الجريمة

صدرت الطبعة الثالثة من

ليالي الملاح التائه

ديوان الشاعر على محمود طه

طبعة أنيقة فاخرة على ورق ممتاز وغلاف

مبتكر بالألوان الطيبة لأول مرة .

نسخ النسخة ١٥ قرماً هذا مصارف البربر

أرواح شاردة

دراسات في الأدب الأوربي وتراجم وصور فنية غربية

طبعة محدودة على ورق بوفان النادر

الكتاب الذي نفتت الطبعتان

الأولى والثانية منه في أقل من عام

نسخ النسخة ١٢ قرماً هذا مصارف البربر

يطلب من جميع المكتبات العربية ومن مجلة الرسالة